إيجاز القصر
دراسة تطبيقية في سورة البقرة

د. محمد عبد الله محمد فضل الله
د. محمد أحمد الأمين أحمد

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه ونهج نهجه، واقتفى أثره وبعد:

لقد حظيت بلاغة القرآن الكريم بعناية علماء الأمة – خلال العصور–وما زالت هذه العناية، وستبقى بإذن الله – حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أبرز مظاهر هذه العناية تلك المؤلفات العظيمة حول بلاغة القرآن وعلومه وتفسيره، ولا عجب في ذلك، فالقرآن كتاب هذه الأمة، ومحور عظمتها، وسرّ خلودها، فقد جعله الله هداية لها في كل شؤون حياتها، وأودعه من التوجيهات والأحكام ما يحقق لها النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة.

كانت لبلاغة القرآن –بغير شك–أثر كبير على نفوس الناس، سواء أكان هذا التأثير في المعاني الروحية والخلقية الجديدة التي رفدوها من الدين الجديد، أم امتد هذا الأسلوب بطبيعة الحال فتأثر الناس بهذه الروعة الأسلوبية وتلك العذوبة الصوتية والصياغية، إذ كان ثورة فنية وأدبية جديدة أحلت قيماً جديدة: صوتيه ولفظية ولغوية وصياغية وبيانية وبديعية.

الإيجاز أسلوب حظي بإشادة الجاهليين وفضلوه على غيره من الأساليب، إذ أنه كان الأنسب لطبيعة حياتهم، فالمجتمع الجاهلي كان مجتمعاً أمياً قلت فيه الكتابة فكانت الذاكرة وعاء حفظ أدبهم؛ وحتى تستوعب الذاكرات هذا الأدب، ساعدوها بالإيجاز الذي يسهل الحفظ. فصار بيت الشعر الذي يحفظ رواية ويلقى مشافهة يفرغ فيه الشاعر طاقاته الوجدانية والفكرية في نطاق محدود.

فكان الإيجاز أسلوبهم المفضل. والقرآن عندما يخاطب العرب يوجز لهم، مما يتوافق مع طبيعة حياتهم، ويطنب عندما يخاطب اليهود. وسار هذا الفهم حتى أنهم بعد أن استقرت علوم البلاغة نظروا للإيجاز أن له موقعاً من البلاغة كموقع البلاغة من الإيجاز. فكان قولهم "البلاغة من الإيجاز"

فكان هذا البحث " إيجاز القصر – دراسة تطبيقية – في سورة البقرة " محاولة للوقوف عند بعض النواحي الإيجازية في هذه السورة، لكون إيجاز القصر من نواحي بلاغة الشكل الخارجي للنص، وأنه يقع ضمن قضية اللفظ والمعنى، والتي يهتم فيها بمجانسة الكلام للمقام. فضلاً عن أن إيجاز القصر أولى بعناية البلاغيين كما اعتنى النحاة بإيجاز الحذف اهتماما بتقدير المحذوف وأثره على الإعراب. إذ أن إيجاز القصر تركيب يوحي بالمعنى ويشير إليه بتكثيف اللفظ، فيترك مجالاً للتأويل وتصوير المعنى. ونظن أن هذا هو الإيجاز بمعناه البلاغي الذي يحمل الأسلوب الفني المبدع.

1-الإيجاز لغة:

وجز الكلام وجزاً وأوجز: قلّ في بلاغة، وأوجزه اختصره. ويقال: أوجز فلان إيجازاً في كل أمره، وأمر وجيز، وكلام وجيز أي خفيف مختصر ([1]) وأسلوب الإيجاز من أهم خصائص اللغة العربية في القديم، فقد كانوا يرون أن البلاغة هي الإيجاز، وكان جعفر بن يحيى يقول لكتّابه: " إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا " [(2)] والميل للإيجاز عمَّ نثرهم وشعرهم، وقيل لأحدهم مالك لا تزيد على أربعة وأثنين؟ قال: هن بالقلوب أوقع وإلى الحفظ أسرع وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع وصاحبها أبلغ وأوجز. ومما جاء في كتاب الصناعتين أنه قيل لأحدهم: ألا تطيل القصائد؟ فقال:

أَبَى لِي أن أطيلَ الشعرَ قصدِي إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ
وإيجازي بمختصرٍ قريبٍ حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ
فأبعثهنَّ أربعةً وستّاً مثقفةً بألفاظِ عذابِ
خوالدَ ما حَدَا ليلٌ نهارا وما حسنَ الصِّبا بأخي الشّبابِ
وهنّ إذا وسمتُ بهنّ قوماً كأطواقِ الحمائم في الرِّقابِ
وكنَّ إذا أقمتُ مسافراتٍ تهادَاها الرِّواةُ مع الرِّكاب[3]

والأبيات السابقات تلخص فهم العرب للإيجاز، فبه يصل المتكلم لغرضه بلا تمهيد أو زيادة لا يحتاجها المعنى، والكلام فيه يسهل حفظه وروايته لما فيه من قصر. والأسلوب القصير يسرَّع وصول المعاني للقلوب وبالتالي يسرَّع أثرها عليها.

نظر البلاغيون للبلاغة أنها إصابة المعنى، مما يجعلهم ينظرون للكلام بمعنى المفاضلة بعين الإيجاز والإطناب وما يصلحان له من معانٍ وما يناسبهما من مقامات. فالكلام عندهم بالنظر لقضية اللفظ والمعنى هو إيجاز إن كبر المعنى على اللفظ، فإن زاد اللفظ على المعنى فهو إطناب. وإن لم يزد أحدهما على الآخر فهو مساواة. (4)

وليس مقصدهم أن الإيجاز يحمد في كل الأحوال ((ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل ذلك)) (5)

فليس ضرورياً أن تكون قلة الألفاظ دليلاً على جودة المعنى في جميع الأحوال، فقد يكون مرد تلك القلة عجز صاحبها على مستويين: مستوى الفكر أو الانفعال المعبر عنه، ومستوى الأداة المعبرة، أي الملكة أو القدرة اللغوية. يرجعه الجاحظ إلى:" العجز ونقصان الآلة وقلة الخواطر وسوء الاهتداء إلى جياد المعاني والجهل بمحاسن الألفاظ " (6)

وليس كل قلة لفظ إيجاز، لأن قلة الألفاظ قد تكون عيباً في بعض الأحوال والمقامات؛ لأن الإطالة في موضعها تكون إيجازاً.

وفهم البلاغيين للإيجاز أنه الاكتفاء في التعبير بأقل عدد ممكن من الألفاظ، مع الحفاظ عل المعنى حفاظاً يجعله ميسر الفهم، غير مغلق أو غامض (7)

2-مفهوم الإيجاز:

ويرى ابن جني أن الإيجاز ولو بلغ غايته لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته، مع أنه لابد فيه من تركيب الجملة، فإن نقص عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب. ويقول :((إن العرب إلى الإيجاز أقبل وعن الإكثار أبعد))(8) ...والإيجاز عند ابن سنان هو: " أن يكون المعنى زائداً على اللفظ، أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة " (9)

واشترط ابن سنان أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لا أن تكون الألفاظ لفرط إيجازها قد ألبست المعنى وأغمضته حتى يحتاج في استنباطه إلى طرق من التأمل ودقيق الفكر.

وعند الرازى أن الإيجاز هو "العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال " (10)

والذي نخرج به من هذه التعريفات أن:

الإيجاز هو التعبير عن المعنى بألفاظ قليلة تدل عليه دلالة واضحة

وللجاحظ تناول لمفهوم الإيجاز يظهر في عدد من مؤلفاته، ونظر الجاحظ للإيجاز يتجاوز النظر إليه كقضية بلاغية فحسب، بل هو قضية إنسانية وحضارية، فهو طريقة فكرية وعملية. ومرجع نظرة الجاحظ للإيجاز جاءت من ميله العاطفي للأعراب ومذهبهم الذي يميل لحب البساطة وعدم التكلف. نظر الجاحظ للإيجاز الشامل الذي يعم مناشط الحياة كلها بما فيها التواصل مع الغير كلاماً وكتابة، يقوم على مبدأ بذل أقل جهد ممكن والحصول على أكبر منفعة ممكنة. (11) عندما ننظر لكتاب البخلاء أنه ليس كتاب خرافات ومفاكهة، بل هو كتاب دعوة للإيجاز – الاقتصاد- الذي يعم كل مناشط الحياة. فحياة البادية هي حياة الشظف والقلة؛ حببت للإعرابي الاختصار في كل شيء فمن أقوالهم الداعية للإيجاز في الكلام:

خَلِّ جَنبَيكَ لِرامِ   وَامضِ عَنهُ بِسَلامِ
مُت بِداءِ الصَمتِ خَيرٌ   لَكَ مِن داءِ الكَلامِ
رُبَّما استَفتَحتَ بِالمَز   حِ مَغاليقَ الحِمامِ
رُبَّ لَفظٍ ساقَ آجا   لا نِيامٍ وَقِيامِ
إِنَّما السالِمُ مَن أل   جَمَ فاهُ بِلِجامِ

وقال الآخر في الاحتراس والتَّحذير:

اخفِض الصَّوتَ إن نطقتَ بليلٍ   والتفِتْ بالنَّهار قبل الكَلامِ
مُتْ بداء الصمتِ خير   لك مِن داء الكلام[12]

فقد دعا عبد الله بن عمر الله قائلاً: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن فقال: نعوذ بالله من الإسهاب. فقد يكون موقف الرجل يمثل الميل للزهد والاكتفاء بالأهم والاستغناء عن الكماليات. [13]

3-نظرية الاقتصاد اللغوي عند الجاحظ:

وحث الجاحظ على الصدق على الصدق في المعاني والقصد في الألفاظ (فصدق –وقصد) يعودان إلى أصل واحد عنده، فنراه يقول: لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصر لفظاً من كلامه (صلى الله عليه وسلم) فكانت الحكمة مدانية للإيجاز، فهي تجمع في ألفاظ قليلة حقائق كثيرة. فالإيجاز تحر للحقيقة والصدق [14] وينظر الجاحظ للإيجاز كنهج تعليمي وتوصيلي أمثل. الإيجاز يمثل زاوية العلوم وحفظها ونقلها للغير. " العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شئ أحسنه)) [15] ويعلل الجاحظ لتفضيل الإيجاز في بعض موضوعات الشعر فقد قيل لفضيل بن علقمة لم لا تطيل الهجاء قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق [16]. وقيل لأبي المهوش لم لا تطيل الهجاء قال: لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً [17]. ويعلل لإيجاز العرب في المراثي لأنهم يقولون وأكبادهم تحترق [18]

اهتم الجاحظ بنظرية الاقتصاد اللغوي وهي إحراز أكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ. فعنده أحسن الكلام هو الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه [19] وما كان أبعد معنى وأقل لفظاً [20] وهو حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف [21] والرجل يلخص مذهبه كاملاً (وفي الاقتصاد بلاغ) [22]

مفهوم الجاحظ وغيره من البلاغيين للإيجاز أنه الاكتفاء بأقل عدد ممكن الألفاظ مع الحفاظ على المعنى حفاظاً يجعله ميسر الفهم، غير مغلق أو غامض [23] ومن الإيجاز ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تبين المحذوف أو هو " ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه " [24]

"والإيجاز بالحذف شئ يخص من حيث التفصيل علماء النحو لا البلاغة " [25] أما موضع عناية هذا البحث فهو إيجاز القصر؛ إذ هو وسيلة تعبيرية قصدها الإيحاء، وفتح مجال التخيل وتأويل المعاني المسكوت عنها، لا الكلمات المحذوفة فهو أولى بإهتمام البلاغيين. فهو تركيب يوحي بالمعنى ويشير إليه، بتكثيف لفظي كبير. والذي لا بفصل فيه ولا يؤتى على نهايته، وإنما يلقي صاحبه إليك باللفظ القليل الذي حذفت منه بعض العناصر غير الإعرابية، فيترك لك مجالاً ومتسعاً للتأويل وتصور المعنى.

وهذا الضرب من الإيجاز يقوم على الجمع والتكثيف فتشحن الكلمات بمعان تربو على طاقتها العادية دون الاعتماد على غير الكلمات الموجودة في النص. فلا يظن أن بعض الألفاظ حذف أو قدر. فهو أسلوب يعنى بتضمين القليل من الألفاظ لكثير من المعاني. وهذا لا يكون إلا باللجوء إلى الوسائل البلاغية كالمجاز والتشبيه والمبالغة والطباق وغيرها لأن المتكلم – فيما عدا ذلك – مضطر لأن يضع لكل معنى جديداً لفظاً جديداً.[26]

إيجاز القصر في سورة البقرة:

لإيجاز القصر في سورة البقرة خصائص منها الإجمال، والإيحاء بالمعاني، وظلال المعاني، وقيمة التنكير، وفيض الدلالة وتكثيف المعاني. [27]

أ-الإيجاز المجمل:

من إيجاز القصر الذي جاء مجملاً في سورة البقرة قوله تعالى :((الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ))[28]. فالحديث عن القوم الفاسقين الذين نقضوا عهد الله بعد إبرامه وهو ((عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي أن يعرف خالقه، وأن يتجه إليه بالعبادة. وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله ... وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم ... وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته، وهذه العهود كلها ينقضها الفاسقون)) [(29)].

والعهد المذكور عظيم المعنى، وقد عبر تعالى بعبارات موجزة عن معانٍ جليلة عظيمة. وهؤلاء الفسقة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وهو كثير أيضاً ومنه صلة الرحم وموالاة الأنبياء والمؤمنين، والاجتماع على الحق ووصل القول بالعمل ولكنهم قطعوا بينهما بقول دون عمل، أو أنهم قطعوا شرائعه، ولم يحفظوا حدوده. وهي عامة في كل ما أمر الله به أن يوصل، وذلك العموم الذي تحتويه الألفاظ في هذه الآية، مما يحتاج في تفصيله إلى ألفاظ وبسط في المعني مما جعل الآية تدخل ضمن إيجاز القصر فقطع ما أمر الله به أن يوصل يؤدي إلى تفكك العرى وانحلال الروابط ووقوع الفساد في الأرض. [(30)] ومن إيجاز القصر الذي فيه إجمال قوله تعالى: ((أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)) [(31)]

فالله سبحانه يتصرف في خلقه بما شاء وكيف شاء , فهو خلقهم كما يشاء , يسعد من يشاء , ويشقي من يشاء ويصح من يشاء , ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه [(32)] فملكية السموات والأرض فيه إجمال أوجز تحته معانٍ كثيرة بالحكم والتصرف والإيجاد والاختراع , والملك والسلطان ونفوذ الأمر والإرادة " [(33)] ومن الإجمال الذي أوجز فيه المعنى الكثير في اللفظ القليل قوله تعالى: ((وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ)) [(34)] فملكية السموات تتداح لتشمل الكون كله , من سماوات وأرض وما فيهما من ملائكة وجنان ونيران ونعيم مقيم ، وعذاب مقيم , فضلاً عن مخلوقات مشاهدة في الحياة الدنيا تكاد لا تحصر . ففي الآية إجمال لما لا يريد سبحانه إحصاءه. ونسبة ضمير الغيبة في الكلمة إلى لام الملكية (له) فيه إفادة بأنه هو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم لما يشاء والجميع عبيد له أو ملك له. [(35)]

ويدخل في ذلك قوله تعالى :((وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ)) [(36)]

من الذي يعجز البشر عن الإتيان به، جريان الفلك في البحر. وهذا الجريان يكون لنفع الناس وعبارة (بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) جمعت منافع أكثر من أن تحصى [37]

وفي العبارة إباحة ركوبها وإباحة الاكتساب والتجارة وعلى الانتفاع باللذات، فإباحة ركوبها نفع للناس وإباحة الاكتساب منها بأنواع الصيد والتجارات والتنعم بالنسيم والتنزه وذلك وغيره منافع الناس، فضلاً عن النفع يأتي من يحمل عليها أو يحمل له عليها. ففي الآية عبارات حملت من المعاني المتوالدة الكثير.

ب-الإيحاء بالمعنى:

((تقترن شواهد إيجاز القصر في القرآن الكريم بالإيحاء بالمعنى الذي يخضع للتوالد الناتج عن احتواء الألفاظ لكثير من المعاني)) [(38)] ومن ذلك قوله تعالى :((فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) [(39)] والحديث في الآية عن عقاب الله لآدم وزوجه حيث استجابا لنداء الشيطان وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله أن يقرباها، فكان أن أخرجا من ثواب إلى عقاب , وقد أجمل الله ما كانا فيه من نعيم الجنة الذي ذكرته آيات كثيرة في القرآن من نعيم مقيم وأزهار وثمار ورياض وأرائك وإستبرق ورياحين وأنهار ... فأجمل الله كل ذلك في قوله (مِمَّا كَانَا فِيهِ) وهذا أبلغ من إحصاء مفردات ذلك النعيم حتى لا يكون محصوراً محدداً , فالنعيم المشار إليه يدرك بالتصور والتدبر والتفكر، لا

بالحصر والحد , مما يظهر كبر خسارة آدم وزوجه بإطاعة الشيطان .

ومن الإيحاء بالمعنى قوله تعالى :((مَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ)) [40] والحديث في الآية فيه توضيح لأسباب رفض المعاندين للرسائل وتكذيبهم الرسل الذين يدعونهم لإتباع الحق واجتناب الباطل، فالباطل تدخل فيه الآثام والمهالك وهي على كثرتها أجملت في قوله تعالى :(مَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ) فأنفسهم تدعوهم للانحدار إلى الشهوات والملذات. وهذه حال المستكبرين على رسالاته تعالى على مر الأعصر.

ج-ظلال المعاني:

المعنى يأتي في بعض آيات القرآن بشكل يسمح باستنباط ظلال كثيرة، تسهم في فهمه [41] ومن ذلك قوله تعالى: ((وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ))[42] والبينات جمع بينة وهي الآية التي يؤيد بها الله رسوله لتدل على نبوته ورسالته. وهي تسع آيات ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً))[43] الآيات عند المفسرين هي العصا واليد والسنون والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر [44] وفي آية البقرة السابقة لم يفصل الله هذه الآيات، وإنما أشار إليها مجملة، فانبعثت في المعنى ظلال جاء بها أسلوب الإيجاز بلا تطويل أو تفصيل. وإن فصلت الآيات في مواضع أخرى من القرآن.

ومن آيات الإيجاز في ظلال المعاني قوله تعالى :((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) [45] والمراد بخطوات الشيطان أعماله وهي كل ما يقرب من المعصية ويبعد عن الطاعة. ويفهم من ظلال معاني خطوات: الفقر، والفحشاء، والضلال البعيد، وإيقاع العداوة والبغضاء ويدعوهم للخمر، والميسر، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فالشيطان يضل من يتبعه إلى ضلال مبين. فمن سار على خطوات الشيطان فهو من حزبه وهم أصحاب السعير.

يتجلى ذلك بالنظر للآيات التالية : ((إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [46] وتوعد الشيطان الناس قائلاً :((قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)) [47] وحذر الله عباده من الشيطان : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً))[48] وقوله تعالى :((إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)) [49] ويقول تعالى :((إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)) [50]

د-التنكير في الإيجاز:

اللفظة المنكرة في القرآن الكريم في أسلوب القصر تكثف الكثير من المعاني. ومن ذلك قوله تعالى :((وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)) [51]

تنكير لفظة حياة فيه دلالة موجبة موجزة، فهم يتكالبون على الحياة بكل ما فيها. والحرص يكون على الحياة المستقبلية لا الراهنة ولا الماضية فإنهما حاصلتان، فالتنكير إفادة الحرص على مستقبل الحياة لا مطلقها. [52]

ويرى عبد القاهر الجرجاني أن تنكير لفظة حياة فيه طلب الازدياد من الحياة لا الحياة نفسها، وهذا ما ساقته لفظة حياة منكرة. [53] ومن الإيجاز الذي جاء منكراً قوله تعالى:

((وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير)) [54] جاء الخبر في الآية مبهماً ليجمع في إيجاز كل أنواع الخير، ليتسابق الناس فيه بكل أنواعه، فأجرهم محفوظ، فيدخل فيه كل عمل صالح من عقائد وعبادات وفضائل. وختمت الآية بـ (إن الله بما تعملون بصير) لتحمل الوعد والوعيد والأمر والزجر إذ إنه بصير بعباده فليجدوا في طاعته لنيل رضاه.

ومن إيجاز القصر الذي خدمه التنكير قول الله :((وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) [55]. وقف أهل البلاغة والتفسير عند هذه الآية وقفات طويلات لاسيما عند تنكير كلمة (حياة) فتجد الخطاب لمن يعقل من الناس أن القصاص الذي هو موت فيه حياة للناس، وهذا أمر يحتاج لتدبر وتعقل.

ومن فهم أن في القصاص حياة أن ((سافك الدماء إذا أقيد منه، ارتدع من يهم بالقتل فلم يقتل خوفاً على نفسه أن يقتل، فكان في ذلك حياة)) [56]

ويرى الزمخشري أن الآية جعلت القصاص مكاناً وظرفاً للحياة وذلك أنهم ((كانوا يقتلون بالواحد الجماعة وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر)) [57] ويرى أحمد مطلوب أن تنكير المسند إليه جاء للتعظيم. [58] ويرى ابن أبي الإصبع أن الآية ((جمعت الإيجاز والإيضاح والإشارة والكناية والطباق وحسن البيان والإبداع)) [59] ولفت نظر البلاغيين في الآية حسن نظمها وإيجازها باحتوائها على كثير معنى مع قليل لفظ. ولكنهم وجدوا في تنكير حياة زيادة في الحسن ودقة في اللفظ .فقد رأى عبد القاهر الجرجاني أن الحياة التي يكون القصاص سبباً لها وظرفاً , حياة خاصة وهي في مستقبل المقتول الذي يسلم من القتل لخوف القاتل القصاص وجاء قول الجرجاني :((وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكير وامتنع التعريف من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها , وأن يكون القصاص قد كان سبباً في كونها في كافة الأوقات وذلك على خلاف المعنى وغير ما هو مقصود)) [60] ويرى عبد القاهر أن هذه الحياة خاصة لبعض الناس , فليس كل إنسان له عدو يهم بقتله ثم يرتدع خوف القصاص فتكتب له الحياة . فإذا أدخل الخصوص فقد وجب أن يقال "حياة" ولا يقال "الحياة" [61]

هـ-فيض الدلالة:

في الكثير من آيات القرآن فيض من الدلالات التي نجدها في معاني الآيات التي تجمعها في قليل من الألفاظ كقوله تعالى:((وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)) [62] والآية تظهر جزاء من أسلم وجهه لله وهو محسن , فهذا الجزاء نفى تعرض المؤمن للخوف والحزن، فجمع بنفي اللفظتين خيراً كبيراً للمؤمنين ((إقبال كل محبوب عليهم وزوال كل مكروه عنهم , ولا شئ أضر بالإنسان من الحزن والخوف , لأن الحزن يتولد من مكروه ماضي أو حاضر، والخوف يتولد من مكروه مستقبل , فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بل يتبرم بحياته)) [63]

فالمؤمنون أمام عطاء ربهم لا يخافون على ما بين أيديهم من الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، فجمع الله لهم كل أسباب الراحة بنفي مسببات الخوف والحزن وهي كثيرة، جمعها نفي الصفتين المذكورتين فحصل أمن الماضي والحاضر والمستقبل، إذ لهم الأمن الشامل جزاء عملهم الطيب .ومنه قول الله تعالى :((وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)) [64] فالآية جمعت خضوع المؤمنين للتكليف والالتزام به، وما فيه من أوامر الله لعباده , وبيان الالتزام بأمر الله جمعا في السمع والطاعة , رغم أن تفصيلها يحتاج لكلام كثير . فقولهم (سمعنا وأطعنا) إيجاز جامع فتضمن سمعهم كل ما كلفوا به من العبادات وطاعتهم جمعت كل ما يقدمونه من أعمال صالحات.

و-تكثيف المعنى بالصورة:

تسهم الصورة في تكثيف المعنى؛ فنجد علاقة كبيرة بين الاستخدام المجازي والتكثيف الذي هو قوام الإيجاز [65] فنجد الاستعارة تلتحم بالإيجاز التحاماً كبيراً يرتفع بالآية لمقام عالٍ من الإيجاز كقوله تعالى: ((رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا))[66]

في الإفراغ إحلال الصبر بهم مع الاتساع والبيان. الاستعارة أضافت إيجازاً لا نجده إذا استعمل اللفظ على حقيقته. ويفهم من عبارة (أفرغ علينا صبراً) أي أصبب علينا صبراً على القتال والمخاوف كلها والأمور الهائلة، أي أقض علينا صبراً يعمنا في جمعنا، وفي خاصة أنفسنا لنقوى على قتال أعداءنا [67]

وفي الآية استعارة تمثيلية، فقد شبه حالهم والله تعالى يفيض عليهم الصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم، فيعمه

كله ظاهره وباطنه فيلقى في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً (68)

ومن التكثيف الذي وظفت فيه الكناية التي تختصر اللفظ المكنى بها، –والتي أريد بها لازم معناها–أكثر من ألفاظ الحقيقة التي تساويها. ومن ذلك الكناية عن أفعال متعددة بلفظ (فعل) كقوله تعالى :((فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ)) (69). المراد فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا. فاختصرت الكناية بالفعل (تفعلوا) المقصود كما ظهر عند استخدام الحقيقة. من التكثيف للمعاني جاء توظيف المجاز، الذي يكون في كثير من المواضع أبلغ من الحقيقة، إذ تؤدي لفظة المجاز المعنى المراد، الذي قد تعجز ألفاظ الحقيقة عن أدائه، حتى أرتبط المجاز بالإيجاز فصار ((أحسن موقعاً في القلوب والأسماع ... وذلك أن يسمى الشئ باسم ما قاربه أو كان منه بسبب)) (70) ومن ذلك قوله تعالى :((مَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ)) (71). فقد أسند الفعل لغير فاعله. لأن الأمر في حقيقته أن الشراء الذي يكون باستبدال شيء بشئ، وأخذ عوض على عوض، ولكن الأمر في الآية ترك الإيمان واستبداله بالكفر عوضاً عن الهدى.الأمر أمر اختيار شيء وترك آخر.72 ومن الإيجاز الذي جاء بأسلوب المجاز تسمية المسبِّب باسم المسبَّب كقوله تعالى :((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)) (73) فقد سمي جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء (74) ففى الأسلوب اختصار لصورة القصاص ،كما أنه بيان لماهية القصاص لأنه اعتداء مسبب عن اعتداء , وإن كان الثاني لا يسمى اعتداء , إلا أنه سبحانه قد أورده على سبيل التجوز بتسمية المسبب باسم السبب وذلك حتى لا ينفر من الابتداء بالاعتداء فكأنه سبحانه – يقول من اعتدى عليكم فافعلوا به كما يفعل بكم , ولتعلموا أن ما تصنعونه مكروه في المعاملات بين الناس وإن كنتم تؤمرون به ، فاختصر ذلك المعنى كله ليفهم من لفظ (الاعتداء) الثاني ويضفي الإيجاز على المعنى – مع امتزاجه بالمجاز – ما لم تستطع الحقيقة إضفاءه (75)

خاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، ونصلي ونسلم على أبلغ الخلق.

العلاقة بين اللفظ والمعنى قضية شغلت الناس منذ قديم، ويدخل في ذلك أمر الإيجاز والمساواة والإطناب. وقد كان العرب في جاهليتها أميل للإيجاز ولا تفارقه إلا لسبب مرضي عنه. وذلك ما يوافق طبيعة حياة العرب المائلة للتقشف. وقد سار القرآن في خطابه للعرب بما يوافق ما اعتادوه، وخاطب غيرهم –لاسيما في مواقف الحوار الجدل – بتطويل يتناسب مع طبعهم وطبيعة الحوار والجدال. وهذا ما نلحظه في سورة البقرة، فجاء فيها أسلوب الجمع والتكثيف – إيجاز القصر – وهو تضمين للمعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة وهو لا يتأتى إلا باللجؤ للوسائل البلاغية مما يجعلنا نتفهم قولهم أن الإيجاز هو البلاغة.

فقد حملت الآيات موضع الدراسة خصائص إيجازية كالإجمال والإيحاء بالمعاني، وظلالها وفيض الدلالة وتكثيف المعني.

نرجو أن نكون قد وفقنا في تدبر الآيات متفهمين دور الإيجاز في خدمة المعنى وتدبر الإعجاز.

والحمد لله من قبل ومن بعد

الهوامش

❖القرآن الكريم
1 -ابن منظور –لسان العرب-مادة (وجز).
2-الجاحظ-البيان والتبيين – تحقيق: عبد السلام هـارون – القـاهرة – 1367هـ -1948م ج 1 ص 86.
3 - أبو هـلال العسـكري - كتـاب الصـناعتين – تحقيـق: د. مفيـد قميحة – دار الباز – بيروت – ط1 -1401هـــ -1981م – ص194.
4 - الخطيب القزويني – الإيضاح – شرح د. عبد المـنعم خفـاجي – دار الكتاب اللبناني -بيروت 1949م – ص 280.
5 - ابن قتيبة – أدب الكاتب -تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة – القاهرة –ط3-1963م – ص 15.

[6] - الجاحظ – البيان والبيين – ص 27.

[7] - إدريس – بلمليح – الرؤية البيانية عند الجاحظ – دار الثقافة – الدار البيضاء – ط1 -1404هـ -1984م – ص 236 -237.

[8] - ابن جني – الخصائص-تحقيق: محمد علي النجار – القاهرة – 1372هـ -1953م ج1ص 83.

[9] - ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة -تحقيق: عبد المتعال الصعيدي – القاهرة 1371هـ -1952 ج1 ص 243.

[10] - فخر الدين الرازي – نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز -القاهرة – 1317هـ -ص 145.

[11] - محمد الصغير بناني -النظريات اللسانية والبلاغية – دار الحداثة – بيروت – ط 1 – 1986م – ص 252.

12-الجاحظ – البيان والتبيين -ج1 -ص80.

[13] - المرجع السابق – ص 207.

[14]- المرجع السابق – ج 1 ص .293

[15]- المرجع السابق – ج 1 ص 207.

[16]- المرجع السابق – ص 207.

[17] - المرجع السابق – ج1 ص .207

[18] - المرجع السابق – ج ص 320.

[19]- المرجع السابق ج2 – ص 17.

[20] - المرجع السابق – ج1 ص 229.

[21]- المرجع السابق ج1 ص 111.

[22] - بلميح – الرؤية البيانية – ص 227.

[23] - المرجع السابق – ص 255.

[24] - ضياء الدين بن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – القاهرة – 1358هـ – 1939م ج2-ص278.

[25] - بلميح – الرؤية البيانية — ص 237. ابن كثير تفسير القرآن العظيم – دار الأندلس – بيروت ج1-ص280.

[26] محمد الصغير-النظريات –ص270.

[27] - مختار عطية – الإيجاز في كلام العرب ونص الإيجاز – دراسة بلاغية – دار المعرفة الجامعية – المنصورة -مصر – 1997م ص 188.

[28] - سورة البقرة، آية 27.

[29] - سيد قطب –في ظلال القرآن-ط 13-دار الشروق-القاهرة-1987م-ج1-ص51-52.

[30] - المرجع السابق ص 52.

[31]- سورة البقرة – الآية 107.

[32]- ابن كثير تفسير القرآن العظيم – ج1-ص280.

[33]- القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج2 ص 69 (موقع يعسوب).

[34]- سورة البقرة – آية 116.

[35]- ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج1 – ص 280.

[36]- سورة البقرة آية 164.

[37] -العسكري-الصناعتين-ص 169.ابن كثير-تفسير القرآن العظيم –ج1، ص475

[38]- مختار عطية – الإيجاز ص 207

[39]- سورة البقرة – آية 36

[40] - سورة البقرة الآية 87

[41] - مختار عطية-الإيجاز ص 217

[42] - سورة البقرة الآية 92

[43] -سورة الإسراء الآية 101

[44] - الهررى –محمد الأمين الهررى تفسير حدائق الروح والريحان في روابي معاني القران –دار طوق النجاة –بيروت –ط1-1421هـ-2001م-ج2-ص89

[45]- سورة البقرة الآية 208

[46] - سورة البقرة – آية 169

[47] - سورة ص– الآية 82

[48] - سورة النساء الآية 60

[49] - سورة المائدة – الآية 91

[50] - سورة فاطر الآية 6

[51] - سورة البقرة – الآية 95 -96.

[52] - محي الدين الدرويش-إعراب القرآن وبيانه دار الرشيد-حمص -ط1-1983-ج1-ص152.

[53] - عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإيجاز-تحقيق محمد شاكر – مطبعة المدني -القاهرة-1984-ص288.

[54] -سورة البقرة آية 110

[55] - سورة البقرة – آية 179

[56] - أبو هلال السري-الصناعتين-ص195 –د. أحمد مطلوب – أساليب بلاغية-وكالة المطبوعات –الكويت-ص210.

[57] - الزمخشري – الكشاف –ج1-ص160– موقع التفاسير

[58] - د. أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها- مكتبة لبنان-بيروت-2007-ص284. - ص. وسعد الدين التفتازى مختصر السعد--شرح مختصر كتاب المفتاح-تحقيق د. عبد الرحمن هنداوي-المكتبة العصرية –بيروت-1426هـ-2000م-ص256.

[59] - ابن أبي الإصبع – بديع القرآن-تحقيق –حنفي شرف –مكتبة نهضة مصر-القاهرة-1957م-ص81.

[60] - عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز -ص293-.

[61] - السابق – نفسه ص .112

[62] - سورة، البقرة – آية 112.

[63] - د. مختار عطية –الإيجاز ص 249.

[64] - سورة البقرة آية 250.

[65] - د. مختار عطية – الإيجاز ص 249.

[66] - سورة البقرة -آية 250.

[67] - محمد الأمين الهرري – تفسير حدائق الروح–ج3 –ص395.

[68] - السابق نفسه ص411.

[69] - سورة البقرة – آية 24.

[70] - د. مختار عطية – الإيجاز ص262.

[71] - سورة البقرة آية 16.

[72] الطبري-جامع البيان قي تأويل القرآن-تحقيق أحمد شاكر-ط 1-1420هـ-2000م مؤسسة الرسالة--بيروت-ج1-ص329.

[73] - سورة البقرة آية 194.

[74] - القز ويني – الإيضاح في علوم البلاغة – ج1-ص 88.

[75] - د. مختار عطية – الإيجاز ص 266.